«الوصف في شعر معروف الرُّصَافي (ت١٩٤٥م) » «دراسة موضوعية فنية»

عمرو علي حسن أحمد [*]

المستخلص باللغة العربية :-

تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على غرض من أغراض الشعر في ديوان شاعر من شعراء العصر الحديث وهو (معروف الرُّصَافي) والوقوف على المظاهر الجمالية في بناء فن الوصف الذي برع في وصف الحياة السياسية، وكذلك وصف الحياة الاجتماعية كالبؤس والفقر، والعلم والجهل، ، ويعد (معروف الرُّصَافي) من شعراء العصر الحديث الذين نهلوا من معين التراث الشعر العربي، من حيث أفكاره، وأسلوبه، وأدواته الفنية، فيمثل نتاجه الشعرى تراثًا أدبيًا كبيرًا، يحتوي على مادة غزيرة من الأفكار وضعت في بناء عقلي متكامل تربطها وحدة فكرية داخلية، مع توافق بديع في الموسيقى بشقيها الداخلي، والخارجي لإبراز الصورة الفنية للقصيدة في أبهى أشكالها، وأدق صورها.

المقدمة:-

الحمد لله الذي يسر لي سبل العلم، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد معلم البشرية الأول وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

أما بعد .....

فقد تميّز العرب قديمًا بفصاحة اللسان والقدرة على ابتكار الصور التعبيريّة الفريدة، فاستمرّت ظاهرة الشعر من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث، وقد ظهرَ اختلافٌ في طريقة تشكيل اللغة وتصورها، واستخدام المصطلحات والموضوعات على مدى تاريخ الشعر، فكانت موضوعاته تُطرح بحسب حاجة المجتمع في ذلك الوقت، فانطلق الشعر الحديث رائدًا للفكر، وتصدر الانطلاقة كبار الشعراء مثل: البارودي وأحمد شوقي، وكذلك تكونت الاتجاهات الشعرية، وتولدت حركات أدبية لها تكويناتها وآثارها، وقد سهلت السبل لهذه الحركة الثقافية: كحركة

(*) هذا البحث مستل من رسالة الماجستير الخاصة بالباحث، وهي بعنوان: [«الوصف في شعر معروف الرُّصَافي (ت١٩٤٥م) » «دراسة موضوعية فنية»] تحت إشراف كل من: أ.د. سهام راشد عثمان - كلية الآداب - جامعة سوهاج & أ.د. هناء عابدين عبد اللاه – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

إحياء التراث، وحركة الترجمة، وحركة الطباعة، وتكونت الصحافة، وتكاثر الشعراء وإبداعاتهم في أنحاء الوطن العربي.

ولا تزال الساحة الأدبية تزخر بكثير من الشعراء المبدعين في أنحاء الوطن العربي عامة، وفي العراق خاصة؛ لذا فالحديث عن الشعر العراقي هو حديث عن إرثٍ ثمينٍ، وحاضر مهم استجاب لمتطلبات الحداثة، فكان الزهاوي والرُّصَافي والبياتي وعشرات آخرون من خيرة الأسماء الشاعرة في العراق، فالأدب عمومًا هو مرآة العصر، التي تنعكس عليها أحداثه، ومن ثم يصبح الشاعر بمثابة مؤرخ لعصره؛ بيد أنه يكتب التاريخ لا بقلم المؤرخ ومحبرته، بل بخيال الأديب ومشاعره.

ويُعد الوصف من الأغراض الشعرية الأصيلة في الشعر العربي، حيث طرق الشعراء به كل ميدان قرب من حسهم وإدراكهم، أو قام في تصورهم، فالشاعر الواصف واسع الخيال قادر على تصوير المحسوس في صورة حيّة، يظهر فيها إبداعه الناتج عن انفعالاته وتأثره بما حوله.

وقد عزمتُ أن أسلط الضوء على شاعر من الشعراء العراقيين في العصر الحديث، وهو الشاعر(معروف الرُّصَافي)، الذي يعد من أبرز الشعراء والكتّاب العرب الذين شاركوا في ترسيخ قواعد الفكر الإبداعي الحديث، حيث ترك وراءه إرثًا ثمينًا تنوّع بين النثر، والشعر، واللغة، والأدب عامة، وقد أهّله هذا الإرث إضافة إلى التجارب الحياتيّة التي اكتسبها أثناء مروره بالعديد من البلدان؛ لكي يكون أنسب مَنْ يقود راية الإصلاح والتجديد بين كتّاب عصره وشعرائه، كما أجاد (الرُّصَافي) من خلال أشعاره التي كانت متميزة في الشكل والمضمون من وصف مظاهر الحياة التي عاشها شعبه، وبرع في نقل الأحداث التي مرّ بها عصره، سواء أكانت اجتماعيّة أم سياسيّة، وقد امتازت هذه الأشعار بالسلاسة، وظهر فيها اهتمام الشاعر بالقوافي الموسيقيّة، وبصياغة الألفاظ.

المطلب الأول:- تمهيد عن الشاعر(معروف الرصافي بين الواقع والأدب).

سيرة معروف الرُّصَافي.

أولًا:- اسمه ونسبه وحياته:-

هو «معروف بن عبدالغني بن محمود الجباري الرُّصَافي، لقب بـ ((معروف الرُّصَافي)) وهذا اللقب لقبه به شيخه الألوسي»(١).

ولد الشاعر «عام {١٢٩٤هـ – ١٨٧٥م} في بغداد، في أسرة متوسطة الحال، فأبوه من عشيرة كردية تقطن في نواحي كركوك تسمى الجبارة، وتدعى هذه العشرية أنها علوية النسب، ويسلم لها جميع أهالي كردستان بذلك، وأما أمه فهي من عشيرة القراغول، وهم بطن من القاطنين في سهول العراق، فهو من أصل كردي وقيل أنه يرجع إلى العلويين»(٢).

وقد «تعلم القراءة والكتابة في كتاتيب بغداد منه {محلة مكتبري} وآخر كتاب درس فيه هو كتاب {حسن الأفغاني} وكان في مسجد نجم الدين الواقع اتجاه النادي العسكري اليوم. وبعدما تخرج من المدرسة المذكورة دخل تلميذًا في الصف الأول من المدرسة الرشدية العسكرية، وكان التدريس في هذه المدرسة باللغة التركية، ومعروف لا يحسن غير اللغة العربية، وكان إذ ذاك في الثانية أو الثالثة عشر من العمر وأخيرًا لعدم نجاحه في الصف الثالث قرر أن يترك هذه المدرسة»(٣).

ثم «انتقل إلى الدراسة في المدارس الدينية ودرس على يد علماء بغداد الأعلام كالشيخ عبدالوهاب النائب، والشيخ قاسم القيسي، والشيخ قاسم البياتي، والشيخ عباس حلمي القصاب، ثم اتصل بالشيخ العلامة محمود شكري الألوسي ولازمه اثنتي عشرة سنة وتخرج على يده، ويذكر أنه كان يرتدي العمامة وزي

(١) نظرات في نسائيات معروف الرصافي، مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية، د. كوثر هاتف كريم، كلية التربية للبنات جامعة الكوفة، م.م. منى صالح حسن. كلية التربية للبنات جامعة الكوفة، العدد١٥، السنة الثامنة ٢٠١٤م، ص٤٢٠.

(٢) الأدب العصري في العراق العربي، رفائيل بطي، القسم الأول (المنطوم)، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ص٦٧.

(٣) مشاهير الكرد وكردستان في العهد الإسلامي، محمد أمين زكي، الوزير العراقي السابق وعضو مجلس الأعيان، الجزء الثاني، الموضوع باللغة الكردية، ونقله باللغة العربية: الأنسة كريمة، راجعه ونقحه وأضاف إليه: الأستاذ محمد علي عوني، ١٣٦٦ه – ١٩٤٧م، مطبعة السعادة، القاهرة - مصر، ص١٩٦.

العلماء وسماه الألوسي ((معروف الرُّصَافي)) ليكون في الصلاح والشهرة والسمعة الحسنه مقابلًا لمعروف الكرخي»[١].

درس «الأدب العربي ببغداد، واللغة العربية في المدرسة الملكية العالية بالقسطنطينية، والآداب العربية في مدرسة الواعظين التابعة لوزارة الأوقاف»[٢].

ثم سافر «إلى الآستانة {إسطنبول} عام ١٩٢٢م، وعاد إلى بغداد عام ١٩٢٣م، وأصدر فيها جريدة الأمل، وانتخب عضوًا في مجمع اللغة العربية في دمشق عام ١٩٢٣م، وبعد ذلك عين مفتشًا في مديرة المعارف ببغداد عام١٩٢٤م، ثم عين أستاذًا في اللغة العربية بدار المعلمين العالية عام ١٩٢٧م، وفي سنة ١٩٢٨م، استقال من الأعمال الحكومية فانتخب عضوًا في مجلس النواب خمس مرات مدة ثمانية أعوام وعندما قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني ببغداد في أوائل الحرب العالمية الثانية نظم أناشيدها وكان من خطابها ولما فشلت عاش في شبه عزلة من الناس إلى أن توفي»[٣].

ثانيًا:- وفـاته :-

توفي الرُّصَافي «في داره في محلة السفينة في الأعظمية ليلة الجمعة في ربيع الثاني عام ١٣٦٤ه - ١٩٤٥م، وشيع بموكب مهيب سار فيه الأدباء والأعيان، ورجال الصحافة، ودفن في مقبرة الخيزران، وصلى على جنازته الشيخ حمدي الأعظمي، وشهد الصلاة عليه الشاعر ولدي الأعظمي وقالوا في تأبينه قصائد كثيرة ولقد بُنيَ له تمثالاً تمجيدًا لذكراه في الساحة المقابلة لجسر الشهداء قرب السراي والمدرسة المستنصرية الأثرية»[٤].

(١) نظرات في نسائيات معروف الرصافي، د. كوثر هاتف كريم، العدد١٥، ص٤٢١.
(٢) تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، طبع ١٩٥٣م، جميع الحقوق محفوظة للمطبعة البوليسية، لبنان – بيروت، ص١٠٣٠.
(٣) الموجز في الشعر العربي دراسة في العصور المختلفة للشعر العربي، الدكتور: فالح نصيف الحجية الكيلاني، المجلد الثاني، الناشر: دار دجلة بغداد – العراق، ص٥٥٤.
(٤) نظرات في نسائيات معروف الرصافي، د. كوثر هاتف كريم، العدد١٥، ص٤٢١.

المطلب الثاني:- موضوعات الوصف في ديوان معروف الرصافي.

الوصف في شعر الفلسفيات:-

يعبر وصف الفلسفيات في شعر الرُّصَافي عن فلسفته وتصوراته ورؤيته الذاتية تجاه بعض القضايا الإنسانية، وفي قصيدة (خواطر شاعر) تحدث الشاعر في مقدمة القصيدة عن نظرته للحياة، وخبرته بشؤونها، وفي قصيدة بني الأرض تحدث عن حب الحياة، وتحدث في قصيدة (وجه ابن آدم) عن الإنسان وهو من أعظم مخلوقات الله تعالى، وفي قصيدة (كلمة معتبر) تناول الشاعر دور المعلم وأثره في الحياة والناس. وفي قصيدة (ما وراء القبر) تحدث عن مصير الإنسان بعد الموت، وأنه سيجني ما قدمه في حياته بعد موته، وانتقاله إلى الأخرة.

وهذه الرؤية التي شكلت وعي الشاعر هي موقفه الذي انطلق منه «فالأدب تعبير بالكلمة عن رؤية الأديب لواقعه، و الأديب بعمله الأدبي يعيد تشكيل الواقع ويختار ما يتلاءم مع رغبته في الكشف عن هذه الرؤية. و أن هذه الرؤية تكشف إدراك الأديب لعلاقات الواقع، و أن رؤية الأديب لعلاقات الواقع كلما كانت عميقة، كشفت عما يقهر إنسانية الإنسان»[(١)].

وفي قصيدة (خواطر الشاعر) استهل الشاعر القصيدة بقسم موجه للقارئ، يقول الشاعر:[(٢)] { بحر الطويل }

لعمرُك ما كلٌّ انكسارٍ له جبْرُ ولا كلُّ سرٍّ يُستطاع به الجَهرُ

لقد ضربت كفُّ الحياة على الحِجا سِتارًا فَعِلْمُ القوم في كنهها نزْر

فقمنا جميعًا من وراءِ ستارها نقول بشوقٍ: ما وراءَك يا ستْر؟

حكتْ سَرحة فنواءَ نُبصر فرعَها ولم ندر منها ما الأنابيش والجذْر

وقد قال بعضُ القوم: إن حياتنا كلَيْل وإن الفجر مطلعهُ القبرُ

فإن كان هذا القول فيها حقيقةً فيا شدَّ ما قد شاقني ذلك الفجْر

(١) الرؤية والأداة نجيب محفوظ، عبدالمحسن طه بدر، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ص١٥.
(٢) الديوان، معروف الرُّصَافي، ص٢٦٥.

وروح الفتى بعد الردي إن يكن لها بقاءٌ وحسٌ فالحياة هي الخُسْرُ

ففي البيت الأول استخدم الشاعر القسم (لعمرك)، والخطاب موجه للقارئ وهذا فيه إشعار بقيمة المخاطب المستمع المتلقي، وعبارى (ما كل انكسار له جبر) جواب من الشاعر، وهو يكشف أثر انكسار الإنسان على النفس فهو لا يجبر، وهذا فيه إضمار وإشارة ورمز لأثر الإساءة إلى الآخر، وإفشاء السر يوغر صاحبه.

ثم أورد الشاعر رغبة الإنسان في التعرف على ما بعد الموت؛ فهو لا يعلم إلا قليلًا، والكثير مما وراء الحياة محجوب، وهذا ما دل عليه السؤال في جملة (ما وراء لا ستر). وشبه الشاعر حياة الإنسان مثل الليل، والموت مثل طلوع الفجر، وهذا يشير إلى حقيقة الدنيا، وهذه الحقيقة لا يدركها الإنسان إلا بعد الموت. كما استخدم الشاعر أسلوب التعجب في عبارة (فيا شد ما قد شاقني)، وهذا يكشف عن رغبته وحب استطلاعه لمعرفة ما وراء الحياة.

ثم تحدث الشاعر عما يمور في باطن الإنسان من أحاديث النفس، يقول الشاعر:[1] { بحر الطويل }

ففي النفس ما أعيا العبارة كشفهُ وقصَّر عن تبيانه النظمُ والنثر

ومن خاطرات النفس ما لم يقُمْ به بيانٌ ولم ينهض بأعبائه الشعر

ويا رُبَّ فكر حاك في صدر ناطقٍ فضاق من النطق الفسيح به الصدر

ويا رُبَّ معنى دقَّ حتى تخاوصت إليه من الألفاظ أعينُها الخُزر

أرى اللفظ معدودًا فكيف أسومُه كفاية معنى فاقد العد والحصر؟!

إن حديث النفس يقدم المحتوى النفسي للإنسان ومن خلاله تبرز الحالة الشعورية للإنسان، ومن ثم الكشف عن الحياة الداخلية للذات الإنسانية، وكذلك تصوراتها الذاتية وانطباعاتها الخاصة. وهذه الخواطر قد يعجز البيان والنطق عن الإفصاح بها، وقد لا تعبر الكلمات عن هذه الخواطر. وفي الأبيات السابقة خطاب

(١) الديوان، معروف الرُّصَافي، ص٢٦٦.

مضمر رمز إليه الشاعر في عبارة (ما لم تقم به بيان)، وعبارة (أعيتها الخزر) وهذه التعبيرات تعبر عن معاناة الإنسان بالاغتراب النفسي، وعدم شعوره بالأخرى، والاغتراب النفسي الذي يدفع إلى العزلة، وهي شعور يجعل المرء مفتقرا إلى التوافق والانسجام مع الآخر والذات، وهذا يدفع إلى رفض الآخر والتواصل معه.

يأتي الإنسان إلى الحياة ومعه «القدر المحتوم وهو الموت، وهذا ما يجعل الإنسان متقلبًا بين حالات متناقضة؛ فيصير من سعادة إلى شقاء، ومن اطمئنان إلى قلق وتوتر، ومن فرح إلي حزن؛ كلما اعترضت لحظات النظر في النهاية المحتومة. والذي يموت لن يحمل معه سواه، وكل إنسان محمول على ذاته، يمثل له الموت مشكلة كبرى، وهمًّا عميقا لن يتخلص منه بسهولة، ومشكلة الموت هي مشكلة الأنا والذات القلقة التي تتفتح على الحياة، وتشرع في تذوقها والتزود من مباهجها حتى تدرك أن التناقض لسردها، وأن الموت هو خاتمة التناقض»[(١)].

وصف الشاعر المقابر، ونادي على أهل القبور يسألهم عن حياتهم الدنيا، وما قدموا فيها، يقول الشاعر:[(٢)]

{ بحر الطويل }

وقفت على الأجداث وقفةَ عاشق على الدار يدعو دارس الطلل القفرِ

فما سال فيض الدمع حتى قرنته إلى زفرات قد تصاعدن من صدري

أسُكَّانَ بطنِ الأرض هلّا ذكرتمُ عهوداً مضت منكم وأنتم على الظهر؟

رضيتم بأكفان البلى حُللاً لكم وكنتم أولي الديباج والحللِ الحمر

وقد كنتمُ تؤذي الحشايا جنوبكمْ فكيف رقدتم والجنوب على العفر؟!

ففي الأبيات السابقة حدثنا الشاعر عن وقوفه على القبور باكيًا يسأل ساكنيها، كأنه عاشق يقف على أطلال محبوبته. واستيحاء أجواء الوقوف على طلل

(١) الرؤية الرومانسية للمصير الإنساني لدى الشاعر العربي الحديث، طلعت أبو العزم، الهيئة المصرية العامة لكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٤٩.
(٢) الديوان، معروف الرُّصَافي، ص٢٨.

المحبوبة، وديارها وقفارها الخالية يناسب الوقوف علي القبر، حيث خلت الحياة والديار من صاحبها الذي عاش على ظاهر الأرض مدة حياته، كما أن الشاعر استخدم التعبير بلفظه (فيض) للدلالة على كثرة الدموع، ولاءم الشاعر بين الدموع والأنفاس الطويلة وهي الزفرات وما فيها من ألم وشهيق وزفير، وهذا يبرز حالة الحزن كأنها من لفح جهنم. ثم سأل الشاعر أهل القبور عن حياتهم العابرة، ويلحظ المتلقي أن الشاعر جعل التراب مكانا لذوي الجاه والشرف بملابسهم التي تجلت بألوانها الحمراء، وهذه الملابس الناعمة لم تفلح فيما فعلته الأكفان بأصحابها، فأهل المقابر يدفنون في أكفان، ويعلوهم التراب.

ثم يعلن الشاعر عن فلسفة الموت في المساواة بين الناس، يقول الشاعر:(١)

{ بحر الطويل }

ألا يـــا قبـــورًا زرتهـــا غيـــرَ عـــارف بها ساكنَ الصحراء من ساكن القصر!

لقـــد حـــار فكـــري فـــي ذويـــكِ وإنَّـــه ليحتـار فـي مثـوى ذويـك أولـو الفكـر

فقلـــت، وللأجـــداث كَفـــي مشـــيرة ألا إن هـذا الشـعرَ مـن أفجـع الشـعر

استخدم الشاعر في البيت الأول من الأبيات السابقة أداة التنبيه (ألا)، وذلك ليفتتح بها الكلام، وللدلالة على أهمية كلامه، ومن ثم تكون هذه الأداة داعية للمتلقي أن يحسن الإصغاء للشاعر. والقبور هنا هي من طلب منها الشاعر أن تصغي له وتنصت إليه، فالقبور ساوت بين الغني والفقير، وهذا ما قصده الشاعر من الصحراء والقصور، وهو الدلالة على تساوي الفقير والغني بعد الموت، ثم أعلن الشاعر عن حيرته في الأموات، وهذا الأمر يحتار منه أولو العقول، ثم جعل الشاعر شعره من أفجع الأشعار لارتباطه بالموت، ومصير الإنسان بعد موته، وهذا يعد نزعة فلسفية عبر الشاعر من خلالها عن رؤيته للموت والقبور، وليس مجرد وصف عابر للأجداث.

إن الإنسان كلما انغمس في الحياة أدرك عن يقين نهايته؛ فيحاول أن يحقق قيمة تناسب حلمه وقلقه، فهو يسعى مدفوعًا برغبات شتى متوازية أحيانًا، حتى

(١) الديوان، معروف الرُّصَافي، ص٢٨.

تتحد هذه اليقينية في لحظة ذوبان مع الموضوع، فالسعي في حد ذاته له قيمة لأنه ينسينا الهدف الذي نسعى إليه أو قيمة ذلك الهدف، أنه ينسينا الهدف الأخير لكل سعي في الحياة، أي الموت[١].

يصف الشاعر مشهد نائحة تبكي على وحيدها الذي مات مظلومًا، يقول الشاعر:[٢] { بحر الطويل }

ونائحـــة تبكـــي الغـــداةَ وحيـــدَها بشـجو وقـد نالتـه ظلمًـا يـدُ القهـر

عــزاه إلــى إحــدى الجنايــات حــاكم عليـه قضـى بُطـلًا بهـا وهـو لا يـدري

فويـــل لـــه مـــن حـــاكم صُـــبَّ قلبـــه من الجوْر مطبوعًا على قالب الغدر

مـــن الـــروم أمـــا وجهـــه فمشـــوَّه وَقـــاح وأمـــا قـلـبه فـــمن الصـــخرِ

استخدم الشاعر (واو رُبَّ) في قوله (ونائحةٍ)؛ ليجعل من هذه النائحة مثالًا

تخطّفــه فــي مخلــب الجــور غِيلــةً فـزجَّ بـه مـن مظلـم السـجن فـي القعرِ

لكل امرأة مظلومة مقهورة، تبكي على ابنها السجين، والبكاء هنا ليس تسلية لها وسلوانا لقلبها، بل هو بكاء حزن وقهر من جبروت الظالم وبطشه بولدها، وأرى أن المرأة هنا هي رمز للوطن، الذي عانى من استبداد المستعمر الذي رمز له بالروم وما فيهم من خسة وغدر، كما أن وجه الظالم بدا مشوهًا، وهذا من قبيل السخرية السوداء من الظالم، وهذه السخرية اللاذعة زاد من قسوتها تشويه الشاعر للظالم حين جعل وجهه مشوهًا، وهذا يعد من المسخ، وهو عقاب للظالم وانتقاله من حال أعلى إلى حال أسفل، كما أن المسخ جمع معه استعارة مكنية في قول الشاعر (تخطفه في مخلب الجور) حيث بدا الظلم كأنه طائر جارح من جوارح السماء، وهذا تصوير جيد لهيئة الظالم الذي تحول إلى جارح، والإنسان المظلوم السجين، الذي ظهر في هيئة طائر ضعيف صار فريسة بين مخالب الجور والظلم.

(١) الموت في الفكر الغربي، جاك شورون، ترجمة: كامل يوسف حسن، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٤م، ص٥١.

(٢) الديوان، معروف الرُّصَافي، ص٣٢،٣٣.

وفي قصيدة (ما وراء القبر) تحدث الشاعر عن مصير الإنسان وحياته البرزخية في عالم القبور، يقول الشاعر:[١] { بحر الطويل }

متـــى تطلـــق الأيـــام حرّيـــة الفكـــر فينشـطَ فيهـا العقـل مـن عُقْلـة الأسـر

ويصـــدع كـــلٌّ بالحقيقـــة ناطقًـــا ويتـرك مـا لـم يـدرِ منهـا لِمَـنْ يـدري

أرانـــا إذا رمنـــا بيـــان حقيقـــةٍ عُزينـــا معـــاذَ اللَّه فيهـــا إلـــى الكفـــر

جهِلنـــا أشـــدَّ الجهـــل آخـــر عمْرِنـــا كمـــا قـــد جهلنـــا قبلـــه أول العمْـــر

همـــا ســـلاحًا بحـــرٍ مـــن العـــيش مـــائج ففـــي أي أمـــر نحـــن بينهمـــا نجـــري

ومـــن أيـــن جئنـــا أم إلـــى أيـــن قَصـــدُنا؟ وفـــي أي ليـــلٍ مـــن تشـــكَّكنا نســـري؟

كأنَّـــا أتينـــا والمعيشـــة لُجَّـــة لنعبُـــرَ والأعمـــار جســـر إلـــى القمـــر

بدأ الشاعر بسؤال عن حرية الفكر، وهذا السؤال فيه استبطاء من الشاعر وإشارة إلى حياة التسلط والكبت التي يعيشها المواطن العربي، ثم كان الجواب في عبارة (عزينا إلى الكفر)، والشاعر جعل الحرية معادلا موضوعيا للكفر، من وجهة نظر السلطة التي حرمت المواطن من حريته. وبدت حياة الإنسان مضطربة كأنها بحر يغشاه موج، من فوقه موج.

ثم يتساءل الشاعر عما وراء الموت، يقول الشاعر:[٢] { بحر الطويل }

ومـــاذا وراء القبـــر ممـــا نريـــده؟ وهل من مدًى بعد العبور على الجسر؟

تســـائلني نفســـي وللمـــوت صـــولة ألا هَلْ لكسر الموت ويحك من جَبْر؟

لعـــلَّ حيـــاة المـــرء ليـــلٌ ســـتنجلي غياهبـــه مـــن ســـكرة المـــوت بـــالفخر

(١) الديوان، معروف الرُّصَافي، ص٢٧١.
(٢) الديوان، معروف الرُّصَافي، ص٢٧١.

فـــإن كـــان ذا حقّـــا فـــإن حياتنـــا كما قيل: سَترٌ والرَّدى كاشف الستر

وقـد قيـل: إن الـروحَ تبقـى فهـل لهـا عروج إلى الأعلى، إلى الأنجم الزهر؟

إن ما وراء القبر عالما زاخرا وهو عالم البرزخ، حيث يجني المرء ما قدمه في الدنيا، ثم عبور على جسر الصراف. والموت لا جبر من كسرته إلا حسن المصير، كما أن الحياة ليل وسكرة الموت فجر لحياة البرزخ والقبر، ثم يكشف الشاعر عن فلسفته للحياة والموت، يقول الشاعر:[١] { بحر الطويل }

لعمـرُكَ مـا هـذي الحيـاة ومـا الـذي يُـراد بنـا فيهـا مـن الخيـر والشـر؟

نحـــاول علمًـــا بالحيـــاة وإنَّ ذا منـوطٌ إلـى مـا لـيس يُـدرَكُ بـالفكر

ونســلكُ منهــا فــي مَجاهــلَ قفــرةٍ فنخـرج مـن قفْـرٍ ونـدخل فـي قفـر

علـى أننـا نمضـي إلـى أمـر ربِّنـا كمـا أننـا آتـون مـن ذلـك الأمـر

يقسم الشاعر بحياة المتلقي (لعمرك) بأن الحياة الحقيقية هي حياة العالم الآخر؛ فالدنيا دار ابتلاء تنتقل فيها من صحراء إلى أخرى، ثم يمضي المرء إلى ربه ليجني ثمار ما قدمه في حياته. إن النزعة الفلسفية في هذه القصيدة تبدو متأثرة بالفكر الإسلامي الحنيف، فالإنسان يغادر الدنيا إلى قبره، وفي عالم البرزخ يسأل عما فعله في حياته، ثم يعبر الصراط ويلقى مصيره، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

ومن النزعة الفلسفية: النزعة الصوفية، وهي نزعة تهدف إلى تجاوز الحياة الدنيا وشواغل البدن إلى الانغماس في الأنوار الإلهية، وهي حال من انكفاء الذات لسبر أغوارها والتماهي في الكينونة المطلقة عبر الفناء الذي يمثل الحصيلة النهائية لنقاء الروح، والسمو نحو التحرر والانطلاق[٢].

والنزعة الصوفية «نزوع فطري في الإنسان نحو التسامي والكمال والمعرفة، عن طريق الكشف الروحي أو العلم اليقيني الناشئين عن الإلهام الإلهي

(١) المصدر السابق، ص٢٧٢.
(٢) التصوف المقارن، محمد غلاب، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة – مصر، ص١٢٣.

والنظر العقلي، والرياضة النفسية وبعض الدلائل الحسية، وطريقة المسلكي هو حجب النفس الموجبة للنقض بالمجاهدة بغية الكمال»[١].

والإنسان المعاصر أحوج ما يكون إلى الخطاب الصفوي المستنير فكلما ازدهرت الحضارة وأصيب الناس بسعار الماديات، وتكالبوا بشراسة على جمع الأموال حينًا وسرقتها أحيانًا في ظل الرقي الحضاري المزعوم؛ انحدرت الأخلاق، وديست القيم بالأقدام، وسادت الفتن، وانتشرت الرذائل بين الناس[٢].

وفي قصيدة (بين الروح والجسد) تحدث الشاعر عن لحظة الانسجام والتوافق بين الروح والجسد، بين النزعة الحيوانية والملائكية في ذات الإنسان.

يقول الشاعر:[٣] { بحر الوافر }

أرى للروح بالبدَن اتصالًا خفيًّا لا تبين له رسومُ

تطيف به الهواجسُ شاعرات وتعجز عن حقيقته الفهوم

فإنَّ الروح للجثمان تِلْوٌ به منها ومنه بها وسُوم

فإنَّ كلاهما هذا بهذا كذلك تمَّ أمرهما القويم

فلا جسدٌ يقوم بغير روح ولا روح بلا جسد تقومُ

هما متلازمان فما لكلٍّ بغير قرينه أبدًا لزوم

لذلك كانت الأرواح منا بحيث تَهِي إذا وهَتِ الجسوم

يتحدث الشاعر عن اتصال الروح بالجسد، هو اتصال غيبي لا تراه العين. ومن هذا الاتصال: هواجس النفس التي تخطر على بال الإنسان، وكلما كانت النفس سامية؛ كانت الخواطر نقية. وللتأكيد على هذا المعنى استخدم الشاعر مفردات جسد

(١) المدخل إلى التصوف الإسلامي، محمود أبو الفيض، الدار القومية للطباعة، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٩.
(٢) في رياض الأدب الصوفي، د. علي الخطيب، دار نهضة الشروق، القاهرة – مصر، ص٦.
(٣) الديوان، معروف الرُّصَافي، ص٢٨١.

وروح، وكررها في الأبيات السابقة، وهذا تكرار يوضح في وعي المتلقي: الشعور بالتجربة الصوفية الروحية، وعندما يخف ركون الجسد إلى الشهوات؛ ترقى الروح في معارج الحب الإلهي.

ويلحظ المتلقي أن الشاعر أظهر فلسفته الصوفية في هذه القصيدة، وهذه النزعة تجلت من خلال حديثه عن الحياة الروح، «وهي رحلة بحث عن الجمال والحقيقة والمعرفة، ومكابدة الأشواق، ومدافعة المفاسد، والمعوقات والتحديات»[١].

يقول الشاعر:[٢] { بحر الوافر }

هـــو الـــنغَم الرفيـــق مـــن المثـــاني هـــو الأدب الرفيـــع هـــو العلـــوم

فـــإن الـــروح تغـــذوها الأغـــاني ويجلـــو هَمَّهـــا الصـــوتُ الـــرخيم

ويصـــــقلها الجمـــــال إذا رأتـــــه وتصـــــدِئها القبـــــائح والهمـــــوم

فـــلا تنفـــر بســـمعك مـــن غنـــاء بـــــه غنتـــــك شـــــادية بَغـــــوم

ولا تتـــــرفعنَّ عـــــن الملاهـــــي ولـــو شـــهدت برفعتـــك النجـــوم

وكـــن فـــي المطربـــات فتًـــى طروبًـــا فـــإن النـــاس أطربهـــا الكـــريم

وقـــف عنـــد الحـــدود فـــلا تُعـــدِّ إلـــى مـــا لـــيس يحمـــده الحلـــيم

ولا تشـــتطّ فـــي طـــرَبٍ ولهْـــوٍ فكـــل مُقـــارف شـــططًا ذمـــيم

فـــإن وافقتنـــي وجريـــت جَرْيـــي وإلا فاتـــكَ الطبـــعُ الســـليم

يورد الشاعر نزعته الصوفية؛ فيقول إن زاد الروح هو ترتيل آيات القرآن، وهذا ما أشار إليه في عبارة (هو النغم الرقيق من المثاني)، وقد جعل الشاعر تلاوة الآيات القرآنية نغمًا، وفي ذلك إشارة إلى ارتقاء الروح بالتلاوة. كما أن الشاعر

(١) المدخل إلى التصوف الإسلامي، محمود أبو الفيض، ص٩.
(٢) الديوان، معروف الرُّصَافي، ص٢٨٢.

قابل بين الجمال الذي يصقل الروح، والقبح الذي يصدئ الروح. ثم أشار الشاعر إلى الموازنة بين رغبات الجسد والروح، فالتوسط والاعتدال في هذا الأمر هو علامة الطبع السليم، وقد أجاد الشاعر في هذا الطرح، وهو طرح يعبر عن رؤية صوفية مستنيرة تحقق سمو الجسد والروح من دون شطط.

وفي قصيدة نواميس الحياة يتحدث الشاعر عن نزعته الخاصة ورؤيته الذاتية للكون، فيرى أن الأشياء الكبيرة تبدأ صغيرة، يقول الشاعر:(١)

{ بحر الخفيف }

كلُّ شيءٍ من عالم الذّراتِ كلُّ شيءٍ في كونه كالنباتِ

كلُّ شيءٍ في بدئه من صغير ثم ينمو في ذاته والصفات

هكذا تكبر الصغار وتقوي في نواميس حادثات الحياة

هكذا ترسل الأصول فروعًا عاليات يأتين بالثمرات

فالشاعر كرر عبارة (كل شيء)، وكلمة (هكذا)، وأسلوب التكرار يوحي بما يريد الشاعر أن يرسخه في وعي المتلقي، كما أن استخدام الأفعال المضارعة (ينمو – تكبر – ترسل – يأتين) يبرز تجدد واستمرار حركة سير الحياة في النمو والازدهار، والأصول ترسل فروعا عاليات، وهي الأشجار المثمرة، والتعبير بالعلو والارتفاع يؤكد الفكرة نفسها التي قصدها الشاعر، وهي استمرار حركة الحياة في التقدم.

كما أن الأموال وهي من الجمادات تنمو وتزدهر، والمال أصله فلس واحد، وتنمية الأموال الزهيدة تدر زهيدًا وهو الفلس، يقول الشاعر:(٢)

{ بحر الخفيف }

إن للفلس في الثراء محلّا كمحل الجذور في الدوحات

إن أصل الثراء فلسٌ وهل سا لت سيول إلا من القطرات؟!

(١) الديوان، معروف الرُّصَافي، ص٢٨٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٨٣.

هـــو فـــي قـــدره حقيـــرٌ ولكـــن جمعـــه موصـــل إلـــى العظـــات

يتســـاوى فيـــه الســـخيُّ وذو البخـــ ـــل ورب الإقـــلال والمثـــراة

هـــو هَـــيْنٌ علـــى الـــذي قـــال: هـــاكُم حـــين يعطيـــه للـــذي قـــال: هـــات

ويلحظ المتلقي في الأبيات السابقة أن الشاعر يستخدم حرف توكيد ناسخ (إنَّ)، كما استخدم معه أسلوب التقديم (إن للفلس)، والتقديم هنا يرسخ الفكرة ذاتها في النمو والحركة، فالفلس وهو عملة لا قيمة لها، لكن هذه العملة عندما تجتمع تكون ثروة، وهذا المعنى أبرزه أسلوب التقديم الذي استخدمه الشاعر، كما استخدم الشاعر التضاد بين السخاء والبخل، والاقلال والثراء، وذلك لترسيخ فلسفته الشاعر في ذهن المتلقي.

والاقتصاد في النفقة من صفات الإنسان العاقل، وتوفير احتياجات النفس يجعل المرء سعيدًا، والإنسان يتمتع بطاقة حيوية إذا كان مستقر النفس، لا يشعر بقلق من الغد أو خوف من متغيرات الأيام والأحداث، ومن ثم يحقق أحلامه . وعندما يحقق المرء في تحقيق الذات فإنه يصاب باغتراب نفسي يفقده قيمة وجوده ويعيش في يأس[١].

واغتراب الذات من أنماط الاغتراب الصعبة، إذ يشعر المرء بأنه غريب عن الآخرين، وبعيد عنهم فيفقد شعوره بذاته، وعندما يصاب الإنسان بالاغتراب النفسي يشعر بالضياع ويبتعد عن واقعه، ويشعر بوجود سد بينه وبين الآخرين.

ثم يخاطب الشاعر المتلقي ويوجه إليه النصيحة إذا أراد حياة كريمة، يقول الشاعر: [٢] { بحر الخفيف }

إن تـــرد غـــرس نخلـــةٍ مـــن ثـــراء فســـوى الفلـــس مـــا لهـــا مـــن نـــواة

فاقتصـــد فـــي مـــوارد العـــيش فلسًـــا كـــل يـــوم مـــن طائـــل النفقـــات

واجعـــل الفلـــس فـــوق فلـــس تجـــده مســـعدًا مســـعفًا علـــى الخيـــرات

(١) الإنسان المهدور، مصطفى حجازي، ص٢٨٤.
(٢) الديوان، معروف الرُّصَافي، ص٢٨٣.

واقصد الخير في اقتصادك حتى لا يئول الثراء للآفات

ليس حسن الأعمال في الناس إلا حسن ما يضمرون من نيات

فدع الفعلَ كيف كان – حميدًا أو ذميمًا – وانظر إلى الغايات

إن الثراء الذي يحلم به الإنسان عبر عنه الشاعر من خلال (النخلة) وهي رمز الخير والنماء في بلاد العرب، ثم جعل الشاعر بذرة الثروة فلسًا، وهذا التصوير أجاد فيه الشاعر من حيث إقناع المتلقي بأهمية القليل من المال؛ فهو ينفع صاحبه وقت الحاجة والضيق. ثم يطلب الشاعر من المتلقي أن يحسن نيته في كل ما يفعله، ثم استخدم الشاعر أسلوب القصر قوله (ليس حسن الأعمال في الناس إلا) للتأكيد علي دور النية الحسنة والصدر السليم؛ فإنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى.

المطلب الثالث:- الفصل الثالث (خصائص الوصف الفنية في شعر الرصافي).

العاطفة :-

العاطفة شعور نفسي عميق، يفيض من وجدان الشاعر، ويكون شعره صدى له، وتعبيرًا عما يجيش في نفسه، والعاطفة أيضًا «حالة شعورية تنبع من النفس البشرية إثر انفعالها بحدث تراه، أو تسمعه، وهي مرتبطة بالشعور الإنساني، ولا تنفصل عنه مهما كان الإنسان عنيدًا في إظهارها»[١]، كما تعد العاطفة عنصرًا أساسيًا من العناصر التي يتطلبها الأدب فهي «أهم العناصر و أقواها في طبع الأدب بطابعه الفني»[٢]، كما أنها تكسبه صفة الخلود؛ لأن أي شعر لا يصدر عن العاطفة فهو شعر زائف لا يثير المشاعر والأحاسيس، فأصالة الشاعر، وإبداعه، وقوته إنما تكمن في التعبير عما في نفسه بصدق، وقوة، ووضوح في العاطفة.

أولًا صدق العاطفة وصحتها معناه «أن تنبعث عن سبب صحيح غير زائف، ولا مصطنع حتى تكون عميقة تهب للأدب قيمة خالدة»[٣]، والصدق من أبرز المقاييس النقدية وأولها فيما يتعلق بجانب العاطفة؛ لأن العاطفة الصادقة

(١) المعجم المفصل في الأدب، للدكتور/ محمد التونجي، ج٢، ص٦١٢ .
(٢) أصول النقد الأدبي، للدكتور/ أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٩٩٤م، ص٣١ .
(٣) المرجع نفسه، ص١٩٠ .

مـن أبـرز سـمات الشـعر الجيـد، وكلمـا انـدمج الشـاعر فـي الحـدث، واسـتغرق في إحساسه كان نتاجه صادق العاطفة.

وصـدق العاطفـة «لا يقـوم علـى الموافقـة للحقـائق المتعـارف عليهـا، أو ليس هو صدقًا فلسفيًا، ولكنه صدق الشاعر في انفعاله الذاتي ووجده وصدق مُبين عن عقيدته وشعوره»[١].

ويتجلى الصدق العاطفي في شعر الرُّصَافي في شعر الرثاء، فالشاعر يعانى الفقد، وهذا الشعور عندما يمتزج بالفكرة يدعوه لتصوير عواطفه تصويرًا صحيحًا، صادقًا، يقول الشاعر:[٢] { بحر الكامل }

مـا مـات مـن تركـت لنـا أقلامـه صـورًا خوالـد مـن بنـات ضـميره

صـورًا تمثـل ذاتـه وصـفاته حتـى يقمـن لنـا مقـام نشـوره

فكأنـه وهـو الـدفين بقبـره حـيٌّ يعـيش بحزنـه وسـروره

وكأنـه فـي القـوم سـاعة حفلهـم مـتكلم بنظيمـه ونثيـره

لأبـي علـيٍّ مـن قريحـة شـعره وحـيٌّ أتـى مـن جبرئيـل شـعوره

كـم قـد رمـى الغيـب الخفـي فـؤاده بذكائـه فأصـاب كشـف سـتوره

يأتيـك بـالمعنى الجميـل قـد اكتسـى مـن وشـي سـندس لفظـهِ وحريـره

إن القصيدة السابقة تكشف عن هول وفاة أمير الشعراء؛ فالشعر في مصر أصيب بوفاة كبير الشعراء حافظ إبراهيم ثم أعقبه موت الأمير أحمد شوقي. ولتوضيح هو هذه الفاجعة استخدم الشاعر الطباق بين الشعر والنثر، حيث أظهر هذا الطباق، الرمز إلى حالته من الحزن الشديد، التي تشبه الاختناق بعد رحيل أمير الشعراء. كما وصف الرُّصَافي شوقيًّا بأنه خالدٌ ولم يمت، وذلك عن طريق أشعاره

(١)العاطفة والإبداع الشعري: دراسة في التراث النقدي عند العرب إلى نهاية القرن الرابع الهجري، للدكتور/عيسى على العاكوب، دار الفكر المعاصر للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ٢٠٠٢ م، ص٢٥.

(٢) الديوان، معروف الرصافي، ص٥١٣.

ونثره المتوارث بينهم، فجسد حال الحزن التي عمت الأفق بعد رحيل أمير الشعراء. كما شبه الشاعر أشعار (شوقي) بجمال يشبه السندس والألفاظ بالحرير وهذا يدل على مكانة أمير الشعراء في العصر الحديث.

ثم نادى الشاعر على أمير الشعراء:[1] { بحر الطويل }

يـــا نيِّـــرًا فجـــع القـــريض بموتـــه فبكتـــه عـــين وزينـــه وكســـيره
وخلـــت ســـماء الشـــعر بعـــد أفولـــه مـــن مشـــرقات شموســـه وبـــدوره

ومـــــؤمَّرًا لـــــم تنـــــتفض بوفاتـــــه فـــي الشـــعر بيعتـــه علـــى تـــأميره

إذ لـــن يقـــوم نظيـــره مـــن بعـــده هيهـــات أن تـــأتي الـــدُّنا بنظيـــره

لـــك فـــي الخلـــود مكانـــة مـــا نالهـــا فرعـــون فـــي ديماســـه وحفيـــره

إن الـــــدفين مضـــــمخًا بحنوطـــــه دون الـــــدفين محنطًـــــا بشـــــعوره

إن المتـــوَّج فـــوق عـــرش ذكائـــه يعلـــو المتـــوَّج فـــوق عـــرش ســـريره

فالرُّصَافي يتألم حزنًا على (شوقي) الراحل، ويشبه الشعر بإنسان حزين، والبحور والعروض والقوافي تبكي علي فراقه لهم، فهذا دليل على منزلة (شوقي) العشرية، فموت أمير الشعراء أفجع الشعر العربي الذي لن يأتي بعده أحد يأخذ مكانته. فوصفه الشاعر بالميت المضمخ بالحنوط، وفي هذا الوصف تصوير تحضر فيه الرائحة الطيبة حيث الحنوط والعطر، ثم اختار الشاعر حنوط الشعر والأدب، وجعله أطيب ريحًا من الحنوط.

عندما نتأمل هذه القصيدة نشعر فيها بصدق , وصحة , وأصالة العاطفة المتأججة , المنبثقة عن صدق الشعور، فها هو يستغيث بعد أن انتشر الظلم في البلاد، وتهدمت حصون مصر بفعل هذه المجموعة من الفجار، وقد اصطبغت العاطفة باللون الغائم الذى يكشف عن حزن دفين، وألم عميق لما

(١) المصدر السابق، ص٥١٣.

أصاب الوطن الحبيب؛ فجاءت العاطفة صادقة استطاعت أن ترسم بدقة الأجواء النفسية التي يعيشها الشاعر وهو يرى وطنه فريسة لهذا الظلم.

وهذه العاطفة هي جزء من التجربة الشعرية التي قال عنها المحدثون بأنها «الصورة الكاملة النفسية أو الكونية؛ التي يصورها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور تفكيراً ينم عن عميق شعوره وإحساسه، وفيها يرجع الشاعر إلى اقتناع ذاتي وإخلاص فني، لا إلى مجرد مهارته في صياغة القول لعبث بالحقائق أو يجارى شعور الآخرين لينال رضاهم»[١] فتشعر بصدق العاطفة، وحرارتها، وصدورها عن نفسية شاعر متعمق في التجربة، يقول الشاعر:[٢]

{ بحر الخفيف }

كلُّ شيءٍ من عالم الذّراتِ كلُّ شيءٍ في كونه كالنباتِ

كلُّ شيءٍ في بدئه من صغير ثم ينمو في ذاته والصفاتِ

هكذا تكبر الصغار وتقوى في نواميس حادثات الحياةِ

هكذا ترسل الأصول فروعًا عاليات يأتين بالثمراتِ

والمتلقي للمقطوعة السابقة يلحظ أن الشاعر كرر لفظ (كل شيء) والتكرار هنا يرسخ الفكرة ذاتها في النمو والحركة، فنجد الشاعر يشبه عالم الذرات بالنبات الذي يبدأ صغيرًا ثم ينمو ويكبر، مرابطًا لأحداث الحياة، وهذا المعنى أبرزه أسلوب التكرار الذي وظفه الشاعر. كما استخدم الشاعر المقابلة بين النمو والكبر؛ وذلك لترسيخ فلسفته في ذهن المتلقي؛ فالعاطفة صادقة غير متكلفة في الأبيات السابقة، ثم يخاطب الشاعر أصحاب الثراء، قائلًا:[٣] { بحر الخفيف }

أيها الأغنياء كم قد ظلمتم نعم الله حيث ما إن رحمتم

(١) النقد الأدبي الحديث، للدكتور/ محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ص٣٦٣.
(٢) الديوان، معروف الرصافي، ص٢٨٣.
(٣) المصدر نفسه، ص١٥٥.

ســـــهر البائســـــون جوعًـــــا ونمـــــتم بهنـــاءٍ مـــن بعـــد مـــا قـــد طعمـــتم

مـــــن طـــعـــامٍ مـــنـــوَّع وشـــــــــراب

كـــم بـــذلتم أمـــوالكم فـــي الملاهـــي وركبـــتم بهـــا متـــون الســـفاه

وبخلـــــتم منهـــــا بحـــــق الإلـــــهِ أيهـــا الموســـرون بعـــض انتبـــاه

يبرز الشاعر عاطفته القوية في مطلع هذه المقطوعة، حين يوجه قضية عنده، لم تكن مجرد وصف لحالة فردية، عانت مرارة الفقر وقهر المرض، بل كانت إنسانية عامة تصور قضية هامة من قضايا المجتمع، هي مأساة الفقر وتمثل النزاع القائم بين الطبقات، والصراع المحتدم بين الأغنياء والفقراء، يهوى بهم الفقر، وينال منهم العدم؛ جحود أرباب الأموال، وتنكر أصحاب الثراء، لما كان الأمر كذلك توجه إلى الأغنياء باللوم، ناعيًا جحودهم بحرمان الفقراء، حيث تركوهم فريسة للجوع وطعمة للسقم، بينما هم في جنبات النعيم يتقلبون، ومع حرمانهم، وإعراضهم عن طاعة الله في إخراج حقه المعلوم ليتهم أنفقوا أموالهم فيما يجدي وينفع، أو حتى كنزوها لورثتهم، بل أنفقوها في اللهو والسفه.

وستبقى قصائد (الرُّصَافي) خالدة لأنها نابعة من وحي شعور صادق فرغ للشعر والفن، بعيدة عن المجاملات الاجتماعية، أو الأغراض السياسية، أو مجرد الإعجاب بالظاهر، أما إذا كان الباعث تافهًا أو خداعًا زائفًا كان الأدب سطحيًا، لا أثر له يبقى، فالعاطفة الصادقة تلعب دورًا مهمًا في العملية الإبداعية، وعليها تتوقف إيجابية الأثر الفني أو سلبيته، وكذلك بقاؤه أو اندثاره.

ثانيًا قوة العاطفة « تعد من أبرز المقاييس النقدية إن لم تكن أهمها جميعًا, ولكن هذا المقياس يذكر في الترتيب الطبعي بعد سابقه, فإذا استوثقنا من صدق العاطفة سألنا القارئ: هل أثار النص الأدبي شعورك؟ وهل بعث فيك شعورًا حيًّا وقويًا؟»[1]، فإذا كان ذلك متوفرًا كان النص قوى العاطفة.

كما أن قوة العاطفة يقصد بها «قوة إيحاء العمل الشعري إلى متلقيه، وعظمة سلطانه عليه، وحسن موقعه لديه، فإذا هو يوقظ حسّه، وينعش

(١) أصول النقد الأدبي، للدكتور/ أحمد الشايب، ص١٩٣.

قلبه، وتهش له نفسه، وتهتز كما تهتز الأرض العطشى وتربو»[١]، فإذا كانت العاطفة حادة قوية استدعت قوة مماثلة للتعبير عنها، وبهذا يتمكن الشاعر من نقل هذه المشاعر القوية التي يحس بها إلى المتلقي بالقوة نفسها الكامنة في أعماقه. يقول (الرُّصَافي):[٢] { بحر الوافر }

أرى مستقبل الأيام أولى بمطمح من يحاول أن يسودا

فما بلغ المقاصد غيرُ ساعٍ يُردِّد في غدٍ نظرًا سديدا

فوجِّه وجهَ عزمك نحو آت ولا تلْفِتْ إلى الماضين جِيدا

وهل إن كان حاضرنا شقيًّا نسود بكون ماضينا سعيدا؟

تقدَّم أيُّها العربي شوطًا فإن أمامك العيشَ الرَّغيدا

وأسِّس في بنائك كلَّ مجد طريفٍ واترُكِ المجدَ التليدا

في المقطوعة السابقة أكد الشاعر على نجاح من يحاول أن يصنع لنفسه مجدا يطمح إليه، مستخدمًا أسلوب القصر (فما بلغ المقاصد غير ساعٍ) ليؤكد على ما أراده في البيت السابق.

ثم حث الشاعر المواطن العربي على السعي إلى الجدِّ والحياة الرغيدة؛ فهذا الرخاء لا يتحقق إلا من خلال استشراف المستقبل والسعي في تحقيق الذات، وقد أكثر الشاعر في المقطوعة السابقة من توظيف أفعال الأمر مثل (وَجِّه – تقدم – أسس – اترك) وهذه الأفعال جاءت في سياق النصح والإرشاد واستنهاض همة الإنسان العربي، وحثه على صناعة حياة كريمة تضيف مجدًا جديدًا إلى مجد العرب القديم.

ويلحظ الباحث هنا أن (الرُّصَافي) قد تفاعل بعاطفته القوية مع الواقع المرير، وتناول قضية اجتماعية هامة، وهي قضية الفقر، كل ذلك إن دل على شيء

(١) العاطفة والإبداع الشعري: دراسة في التراث النقدي عند العرب إلى نهاية القرن الرابع الهجري، للدكتور/ عيسى على العاكوب، ص٢٩٩.
(٢) الديوان، معروف الرصافي، ص٦٥.

فإنما يدل على تفاعله الصادق مع مجتمعه وقوة عاطفته، وتأثره بما يراه حوله، وهذه هي رسالة الفن؛ لأن «الفن يولد من جراء الإدراك الانفعالي للعالم، فقد يهتز الفنان ويقع في حالة وجد متحفزة لدى اصطدامه ببعض جوانب الواقع المثيرة»[١]، ومن هنا ينبغي التمييز بين انفعال الإنسان العادي وانفعال المبدع، كما أن الإبداع الفني يعتمد اعتمادًا أساسيًا على العاطفة، لاسيما العاطفة القوية.

ومن خلال المقطوعة السابقة نلحظ قوة العاطفة عند (الرُّصَافي)، فهو حين يتحدث عن المحبوبة وبُعدها، وهجرانها تراه يندفع فيعبر عن ذلك بإحساس، وشعور مرهف، مع قوة في العاطفة مما كان له عظيم الأثر على نسج القصيدة، فجاءت رائعة حية من جميع النواحي، ناحية المعنى، والأسلوب، والصور، والموسيقا، وهذا هو سر، القوة الأدبية ومنبعها، يقول الرُّصَافي سياق القهر:[٢]

{ بحر الطويل }

أرى كلَّ ذي فقر لدى ذي غِنًى أجيرًا له مستخدمًا في عقاره

ولم يُعطه إلا اليسير وإنما على كِدّهِ قامت صروح يساره

ويلبس من تَذليله العز ضافيًا وينظره شزرًا بعين احتقاره

يشُدُّ الغني أزْرَ الفتى في حياته وما الفقر إلا مكْسر في فَقاره

وليس الغنى إلا غِنى العلم إنه لَنورُ الفتى يجلو ظلام افتقاره

يصف (الرُّصَافي) حال الفقير المقهور؛ فهو أجير عند الغني، ولا يحصل إلا على الفتات، بينما الغني يحصل علي كل شيء. ومن خلال الاستعارة أظهر الغني مرتديًا ثوب العز، ثم يوظف الشاعر الطباق بين الفقر و الغنى لترسيخ فكرة

(١) ينظر: مجلة الفيصل الثقافية، (مجلة ثقافية شهرية، تصدر عن دار الفيصل الثقافية)، مقال بعنوان " الطبيعة الانفعالية العقلانية للإبداع الفني" صفر ١٤٠٢هـ، ديسمبر ١٩٨١م، السنة الخامسة، العدد ٥٦، ص٦٥.

(٢) الديوان، معروف الرصافي، ص٦٨-٦٩.

معاناة الفقير من بطش الغني وقهره له. ثم أفصح الشاعر عن الغنى الحقيقي للإنسان وهو العلم؛ فهو نور يجلو ظلام الفقر.

وفي ما سبق من صدق العاطفة، وقوتها، نستطيع أن نقول: إن شعر الرُّصَافي جاء في مجمله تعبيراً عن مواقف، أو أحداث مرَّ بها واندمج فيها بفكره ووجدانه، فجاءت أشعاره في صورة انعكست عليها عواطفه، وانفعالاته، ومن خلال الفنون الشعرية التي قمنا بدراستها عند (الرُّصَافي) يُلحَظ وضوح هذه العاطفة التي تتبدى من خلال الأفكار والمضامين، ومن الطبعي أن تصدر مثل هذه العاطفة عن شاعر وطني، أحب وطنه وتفاعل مع قضاياه الوطنية، والاجتماعية، والثقافية، فجاءت أشعاره قوية تعبر عن هذه العاطفة.

الخاتمة:-

وبعد رحلة طويلة رافقتُ فيها ديوان الشاعر العراقي (معروف الرُّصَافي)، وبعد أن أدمتُ النظر زمنًا في شعره، واخترت نماذج لعرضها في دراستي للوصف عنده، ومن خلال ذلك كُله أسفرت هذه الدراسة عن عدد من النتائج أبرزها:-

أولاً: حسن الوصف عند الرافعي هو ما خرج عن علم، وصرفته روعه العجب؛ ليخرج في أكمل صورة وأروعها، يقول: وإن أحسن ما يكون الوصف الصادق إذا علم، وصرفته روعة العجب، فإن العلم يعطي مادة الحقيقة، والعجب يسكبها صورة المبالغة الشعرية.

ثانيًا: الوصف من الموضوعات الشعرية التي أبدع فيها الشاعر معروف الرُّصَافي واشتملت عليه الأغراض الشعرية عنده في جميع أبواب ديوانه كالكونيات، والفلسفيات، وغيرهما.

ثالثًا: عصر الرُّصَافي يموج بالثورات، وقد استطاع من خلال شعره أن يصور الأحداث التي يعيش فيها تصويرًا أمينًا وصادقًا.

رابعًا: الرُّصَافي كان ملتزمًا بالواقع الاجتماعي، والسياسي، والثقافي الذي عاش فيه، وقد يكون اقترابه من واقعه وقضايا أمته سببًا من أسباب قوة نتاجه الشعري.

خامسًا: شعر الوصف لم يكن مستقلًا منذ البداية، ففي العصر الجاهلي نجده ركنا من أركان القصيدة، كذلك الأمر في عصر صدر الإسلام، والعصر الأموي، إلى أن وصل إلى العصر العباسي، فبدأ يستقل نتيجة للتطور الحضاري الحاصل، وقد أبدع بعد ذلك شعراء العصر الحديث في الوصف فجعله فن من فنون الشعر مستقلًا وكثيرًا ما أبدعوا فيه.